

## في التعبيرات الأولى للهوية الفلسطينية سنوات الجمر ١٩١٧-١٩٢٢

د. محمد حافظ يعقوب \*

لم يساهم عنصر في تنمية الهوية الوطنية الفلسطينية وفي بلورتها، أي في سيورتها في التاريخ، بقدر مساهمة تنامي الخطر الصهيوني فيها وعليها. فالصهاينة هم الذين حدّوا مشروعهم، وهم الذين بيّنوا تخومه وأهدافه، جاعلين بذلك من ضحايا هذا المشروع «مجموعة عربية محددة المعالم»<sup>١</sup>، يجمعها خطر خارجي، وتوحدتها إرادة رفعه ومواجهته. هكذا نمت الهوية الفلسطينية الخاصة في مواجهة خطر خارجي يميّز بلاد فلسطين تمييزاً واضحاً عمّا حولها من المناطق المجاورة التي تغطي رقعة بلاد الشام أو سورية الكبرى.

١. لم يكن ثمة تحديد دقيق لمفهوم فلسطين جغرافياً في ذهن البريطانيين وقت تصريح بلفور. ويمكن القول إن فلسطين كانت بالنسبة للبريطانيين الذين كانوا يرسمون حدود حصتهم من المناطق التي كانت إلى وقت قريب عثمانية، هي غير الأراضي المقدسة التي استقرت عليها مخيلة الرحالة في التاريخ. فمنذ الإحتلال البريطاني - الفرنسي، لم تعد حدود الكيانات الجديدة شأنًا يخص إرادة سكانها وتوقعاتهم، بل غدت موضوع صفقات بين المسؤولين الإنجليز والفرنسيين ومهاراتهم التفاوضية وخبراتهم في السيطرة. وكان على فلسطين أن تتسع بحيث تلبى ما ينتظره الساسة

---

\* باحث فلسطيني

البريطانيون منها: أن تشمل مناطق تمثل عمقاً دفاعياً عن قناة السويس، وأن تكون، بالتالي، محاذية للحدود المصرية. «أما تخومها في الشمال فيجب أن تكون إلى أبعد مدى مستطاع بحيث تُبعد إلى هذا المدى أي قوة أجنبية منافسة قد تدفعها نزاعات المستقبل إلى أن تشن هجوماً على القناة. هذه الأراضي ينبغي لها كذلك أن تمثل بداية الطريق البري إلى المصالح البريطانية في العراق وإيران ومنطقة الخليج العربي، ثم الهند. وهذا يفترض وقوع أطول مسافة ممكنة من الساحل السوري الجنوبي ضمن تخومها»<sup>٢</sup>.

كان الصهاينة يحملون مشروع دولة، دولة تضم كل اليهود الذين يرغبون بالهجرة إليها، وتكون يهودية كما هي إنجلترا إنجليزية وأمريكا أمريكية بحسب وصف حاييم وايزمن لها. وهو مشروع كانت أبعاده واضحة في أذهان الأطراف الأساسية المعنية به. فقد كان الصهاينة يعرفون أن تصريح بلفور هو تعهد «القصد منه خلق دولة يهودية»<sup>٣</sup>، كما يقول الناشط الصهيوني البريطاني اللورد سيف Sieff. وكان البريطانيون يعرفون، كما كتب ونستون تشرشل في ملاحظة دونها بتاريخ ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٩، أن اليهود «الذين تعهدنا بإدخالهم إلى فلسطين (يفترضون) أن السكان المحليين سيطرودون»<sup>٤</sup>. وكان الفلسطينيون يعرفون هم بدورهم كذلك معاني التصريح. كتب العميد ستيرلنغ W. F. Stirling، وكان حاكماً عسكرياً لمنطقة يافا بين ١٩٢٠-١٩٢٣، أن تفسير اليهود لتصريح بلفور كان معروفاً في أنحاء البلاد كلها، وهو أننا (البريطانيين) «نحبذ تحويل البلاد كلها إلى وطن قومي لهم. ومن الطبيعي أن يكون العرب قد أخذوا حذرهم. وقد صار هذا الخوف من السيطرة اليهودية، الذي لم يوجد البتة من قبل، صار هو الشعور الغالب»<sup>٥</sup>.

٢. وبالمقابل، لم يكن الفلسطينيون يحملون في الموروث الثقافي الشعبي مشروع دولة يوازي بقوته قوة المشروع الصهيوني. ولم ترث النخبة الاجتماعية التي ستصبح الزعامة السياسية للوطنية الفلسطينية أيّ تطلع استقلالي أو انفصالي يتصل بالرقعة الجغرافية التي ستصبح فلسطين الانتدابية. بالطبع نشط عرب فلسطينيون في الحركات والمنظمات التي كانت أخذت تتكون في العقود الأخيرة من عمر الدولة العثمانية؛ فشارك، على سبيل المثال لا الحصر، شابان نابلسيان هما رفيق التميمي وعوني عبد الهادي في جمعية العربية الفتاة التي تشكلت في باريس في ١٩٠٩، وعرفت مدن فلسطينية مختلفة فروعاً محلية لجمعيات كبيرة كاللامركزية على سبيل المثال لا الحصر. غير أن النخبة الفلسطينية المحلية على غرار مثلتها في بيروت ودمشق وحلب وبغداد وغيرها، كانت مازالت مقتنعة بالجامعة العثمانية، وأظهرت تمسكاً ولاء كبيرين لوحدة الدولة العثمانية، وكانت تميل إلى تعزيز الرابطة العثمانية بدلاً من كسرها تماماً. ومن الراجح أن الخطر الصهيوني شكل

عنصراً إضافياً من العناصر الحاثّة على الاحتماء بـ«الدولة العلية» وعلى التقويّ بها في المواجهة. فلقد ألحّ الأعيان الفلسطينيون على الوحدة العثمانية و«سلامة المملكة»، كما كتب نجيب نصار في صحيفته الكرمل، وحذروا من مغبة الفرقة بين العرب والترك، وأكدوا على «ضرورة اتحادنا واجتماع كلمتنا، وأنا وإياهم مسؤولون عن سلامة الوحدة العثمانية»<sup>٦</sup>.

صحيح أن السنوات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية حملت بالفعل خطر الاستيطان الصهيوني الذي بدأ في العام ١٨٨٢. لكن العثمانيين، بخلاف الصورة الشائعة عنهم، ما كانوا يجهلون الخطر، أو غافلين عن أبعاده ومراميّه. يلاحظ إيلان بابيه، «أن الحكومة العثمانية كانت تدرك المخططات الصهيونية في الإستيطان في فلسطين العثمانية حتى قبل وصول المستوطنين اليهود الأوائل»<sup>٧</sup>. سيكتب سفير السلطنة في برلين (١٩٠٠/٨/١٧) ما يأتي: «لا مجال للتوهم حول الصهيونية. على الرغم من العموميات الواردة في خطبهم، فإن الصهاينة يسعون لإنشاء دولة يهودية كبرى في فلسطين، سوف تتوسع لاحقاً على حساب الأقطار المحيطة»<sup>٨</sup>. وتبين برقية مؤرخة في ٣ تموز/ يوليو ١٩٠٠ بعثتها القنصلية البريطانية بالقدس إلى الخارجية بلندن، أن استانبول طلبت من شركات النقل البحري التعاون معها «لمنع الهجرة اليهودية». وستصدر السلطات المركزية منذ عهد السلطان عبد الحميد الثاني قرارات للحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ولمنع بيع الأراضي لهم، و بطرد أي يهودي يبقى في البلاد أكثر من ثلاثة أشهر. غير أن هذا القانون كان ذا تأثير محدود إزاء اليهود حاملي الوثائق البريطانية التي لاتعني الدين<sup>٩</sup>. والواقع أن مكانة السلطنة العثمانية نفسها في النظام الدولي كانت في ضعف متزايد. وحين تضعف مراكز الدول، «فإنما تأخذ في التناقص من جهة الأطراف ولا يزال المركز محفوظاً»، كما يُعلّمنا عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمته.

٣. هناك، كما نعرف، علاقة وثيقة بين مدى الولاء لكيان سياسي جديد ومدى تطابق هذا الكيان مع تطلعات المجتمع، أو على الأقل مع تطلعات الفئات المؤثرة سياسياً فيه، ونظرتها لشكل وحدود الكيان المقترح أو الجديد. ولم يكن المحتوى الجغرافي للكيان الفلسطيني الجديد واضح المعالم في أذهان النخبة الفلسطينية المؤثرة سياسياً. فبخلاف العراق اليوم الذي قد يصح اعتباره إلى هذا الحد أو ذاك وريثاً للنظم السياسية المتعاقبة في بلاد الرافدين، بحيث يمكن القول إن العراقي المعاصر يجد ركيزة تاريخية لهويته الوطنية الجديدة، لا يملك الكيان الفلسطيني الذي رسمت حدوده عشية الحرب العالمية الأولى أية ركيزة من هذا النوع. وبخلاف اللبناني الذي قد يجد في (جبل لبنان) نواة لبنان المعاصر، فإن فلسطين الانتدابية تفتقر إلى مثل هذه النواة. فلم تكن القدس أو أي مدينة فلسطينية أخرى في أي يوم من الأيام مركزاً لدولة كبيرة كدمشق أو بغداد

أو القاهرة، وما كانت فلسطين الانتدابية وحدة سياسية واضحة المعالم في التاريخ. فهي لم تكن في تاريخ الدول الإسلامية، الراشدة والأموية والعباسية والفاطمية والأيوبيّة والمملوكية والعثمانية، غير طرف غير مركزي من أطراف الدولة. لعل هذا يفسر لماذا جاءت جميع المحاولات التي قام بها وطنيون فلسطينيون في السنوات العشرين الأخيرة لاكتشاف جذور تاريخية قديمة، كنعانية أو غيرها، لفلسطين الانتدابية، ويشرح في الوقت ذاته تعثر المساعي التي تريد تحويل وإلٍ متمرد كبير على السلطة المركزية العثمانية كظاهر العمر الزيداني إلى مؤسس للوطنية الفلسطينية الحالية، غير أن هذه قصة أخرى ١٠.

عبر التاريخ، ظلت المناطق التي ستصبح فلسطين الإنتدابية مقسمة من الناحية الإدارية بحسب التقسيم الإداري للفتح الإسلامي الذي توافق بدوره وإلى هذا الحد أو ذاك مع التقسيمات الإدارية السابقة الرومانية ثم البيزنطية على وجه الخصوص ١١. في (مسالك الممالك)، يميّز الاصطخري ( أبو إسحاق إبراهيم بن محمد) الذي عاين البلاد في العام ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م من بين كور الشام الخمس كورة فلسطين وكورة الأردن؛ وهذه الأخيرة «مدينتها الكبرى طبريا... وبعض الغور من حد الأردن إلى أن تجاوز بيسان، فإذا جاوزته كان حد فلسطين ١٢». وجند فلسطين هو «أول أجناد الشام ومدينتها العظيمة الرملة وبيت المقدس يليها في الكبر ١٣». في كتابه: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، يورد المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت. ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م) صور عكا وبيسان وأذرعات (درعا) على أنها من كور الأردن؛ أما «بيت المقدس وبيت جبرين وغزة وعسقلان ويافا وأرسوف وقيسارية ونابلس وأريحا وعمان» فيذكر أنها من أعمال فلسطين ١٤.

كانت فلسطين قبل أن تحتلها القوّات العسكرية البريطانية في أواخر العام ١٩١٧ مقسمة من الناحية الإدارية إلى قسمين. أولاهما يشمل المناطق الشمالية، ويتكون من لوائي عكا والبلقاء (نابلس) التابعين لولاية بيروت، وثانيهما يشمل المناطق الجنوبية ويتألف من متصرفية (سنجق) القدس التي تتبع مباشرة سلطة وزير الداخلية في استنبول. تضم متصرفية القدس المستقلة أفضية يافا وغزة وبئر السبع والخليل، وفيما بعد قضاء الناصرة. أما لواء عكا فيضم أفضية حيفا وصفد والناصرة وطبريا. وكان الغور حتى جسر المجامع تابعاً لقضاء طبريا. في حين أن لواء البلقاء يضم إلى جانب نابلس أفضية جنين وبني صعب وجماعين غربي نهر الأردن وقضاء السلط وفيه عمان في شرقه ١٥. هكذا يمكن القول إن القدس (والخليل وهي جزء من متصرفية القدس) على الرغم من مكانتها الرمزية، وأهميتها الدينية والتاريخية، إلا أنها لم تحمل في الموروث الثقافي/ السياسي كما قلنا دلالات مشروع سياسي مستقل. يتضح ذلك مما لا يحصى من الأدلة التي تتصل بمشاعر الإنتماء ومألوف الاجتماع. يُعرّف «تقريرٌ مرفوع من قبل مندوبي جميع بلدان سورية الجنوبية المعروفة

باسم فلسطين والمجتمعين في القدس» فلسطين كما يأتي: «إن سورية الجنوبية التي يطلق عليها اسم فلسطين تؤلف من متصرفيات ثلاث: نابلس وعكا والقدس الشريف وسكان هذه المقاطعات من بدو وحضر يبلغون ما ينوف عن مليون نفس منهم ثمانون ألفاً وخمسمئة اسرائيلي متفرقون هنا وهناك والباقي وطني يجمعهم أصلهم العربي ١٦».

لقد تحدد محتوى الانتماء إلى وطن محدد بالمعنى الترابي للكلمة بمحتوى ذلك الوطن المههدد بالمشروع الصهيوني وبالهجرة الصهيونية الماثلة على الأرض. سيكتب أحد أعيان القدس وهو الحاج راغب الخالدي في جريدة فلسطين (يافا ١٩١٣/٤/٢): «أم يأن لنا أن نفكر في مستقبل بلادنا الفلسطينية، وفي تقوية عنصرنا العربي ليستطيع البقاء في هذا القطر. أنتم بني قومي لا تُقاسون بأهالي دمشق. إن دمشق لم يزاحم أهلها أجنبي حتى الآن، بل إن الذين يهاجرون إليها هم من بني جلدتنا وإخواننا في التبعية. وأما أنتم فانظروا، كيفما التفتتم، هلا ترون أن سيل مهاجرة الأجنبي تكاد تغرقكم؟ ١٧». ورد في مذكرة الجمعية الإسلامية المسيحية في يافا بتاريخ ١٩١٩/١١/١٦ إن «بعض الجرائد الصهيونية قد نشرت عن لزوم إخراجنا من بلادنا وتسليمها لليهود.. إذاً فليعلم اليهود حق العلم إن فلسطين لنا ولا نخرج منها وفيها الحياة.. ١٨».

«إن فلسطين لنا»، هذه هي الكلمة المفتاح التي تحيل مباشرة إلى أس الوطنية الفلسطينية أو الكيانية الفلسطينية التي كانت تحدّ نفسها في تلك السنوات الأولى من الانتداب البريطاني: تأكيد على الانتماء وتحدي لخطرٍ مائل يتهدد وطن هذا الانتماء. «إن فلسطين لنا» لأن هذا الوطن مههدد، ولأن هذه الوطنية ليست غير الوجه الآخر للهوية الفلسطينية التي تُعبّر عن نفسها في التاريخ، وتُكيّف صورتها أمام مرآة ذاتها مع تبدلات الزمان، وانقطاعاته الفظة. لقد حدّت الوطنية الفلسطينية في تاريخها المخصوص ملامح وسمات الإنسان الفلسطيني إزاء التحديات التي واجهته، من ناحية، وتحولات قضيته ومقاومته وإصراره العنيد على البقاء، من ناحية ثانية ١٩. كانت هذه الوطنية تحدّ نفسها، أي تتعرف إلى نفسها، من خلال جملة المطالب التي كانت تقوم بصياغتها، ومن خلال بحثها عن أفضل السبل للوصول إليها. هكذا يمكن القول بثقة كبيرة إن تاريخ كفاح الشعب الفلسطيني هو تاريخ هويته المخصوصة، وإن سبر هذه الهوية هو سبر لما يجمع الفلسطينيين في التاريخ بالرغم من الإنقطاعات الكبرى في هذا التاريخ، وبالرغم من غياب العنصر الدمجي الذي هو الدولة.

لم يصبح الخطر الصهيوني داهماً فعلاً إلا مع الاحتلال البريطاني للقدس في خريف العام ١٩١٧ ولشمال فلسطين في صيف ١٩١٨. فقد وضع الاحتلال البريطاني الفلسطينيين وجهاً لوجه أمام جملة من المعضلات وفي الحقيقة الأزمات التي مازالت نتائجها ماثلة حتى اليوم. ومنذ ذلك التاريخ

والعمل السياسي الفلسطيني بل والهوية الفلسطينية يكابدان جملة من المعضلات الخاصة التي يمكن وصفها هنا بالسباق الخاص للوطنية الفلسطينية بالقياس إلى الوطنيات العربية الأخرى. ولا يعني «تصريح بلفور» في الجوهر غير إلغاء الوجود السياسي، أو بالأصح الإجتماعي والإنساني، لسكان المناطق التي ستصبح، بعد تأسيس إمارة شرق الأردن في ١٩٢١ وترسيم الحدود مع فرنسا من جهتي سوريا ولبنان، فلسطين الانتدابية، وربط مصيرهم بحركات (ديناميات) المشروع الصهيوني وحاجاته. ألم يطلب اللورد بلفور من الوفد الفلسطيني الأول في تموز/ يوليو ١٩٢١ حين أراد مقابلته عرض المطالب الفلسطينية، أن يذهب لمقابلة حاييم وايزمن بشأن هذه المطالب ٢٠؟ وحين طالب الوفد الفلسطيني الأول إلى لندن وزير المستعمرات ونستون تشرشل بتشكيل حكومة فلسطينية مسؤولة، برر تشرشل رفضه بالقول إن: «إعطاء صلاحيات كاملة لحكومة مسؤولة سوف يمنعنا من تنفيذ وعودنا بالنسبة لحقوق اليهود المشروعة في أن يدخلوا البلاد ٢١». وما لم يقله بلفور صراحة في موقفه من المطالب الفلسطينية، أفصح عنه في رسالة بعث بها إلى رئيس الوزراء بتاريخ ١٩١٩/٢/١٩: «فيما يختص بفلسطين، إننا نمتنع عامدين .. عن قبول مبدأ تقرير المصير. ذلك أنه إذا استشير السكان الحاليون فإنهم سيصوتون ضد اليهود. أما مبرر سياستنا هذه فإننا نعتبر فلسطين قضية استثنائية بشكل مطلق، وأن مشكلة اليهود خارج فلسطين قضية عالمية ٢٢». وستشرح العبارة التالية لحاييم وايزمن في العام ١٩٣٠ جوهر هذه الخصوصية الفلسطينية على وجه التعيين: «إن وعد بلفور والانتداب قد نزعا فلسطين نهائياً من إطارها في الشرق الأوسط لربطها بالجماعة اليهودية بالعالم وبالمشكلة اليهودية العالمية. إن الحقوق التي فاز بها الشعب اليهودي على فلسطين ليست مشروطة البتة برضى أكثرية السكان الحاليين، ولا يمكن ربطها بإرادتهم» ٢٣. هكذا عملت الصهيونية والانتداب على إلغاء دور الأهالي الفلسطينيين لصالح اليهود الموجودين في فلسطين (٧ بالمائة من مجموع السكان المقيمين في البلاد في العام ١٩١٨ و٩ بالمائة بحسب إحصاء العام ١٩٢٢)، ولصالح اليهود الذين يمكن أن يهاجروا إلى فلسطين. وهكذا وجدت الهوية الوطنية الفلسطينية ذاتها تواجه معضلات خاصة ومهمات خاصة ستطبع بالضرورة ألوان هذه الهوية وسيرورة تكونها في التاريخ، كما سرى.

٤. قلنا في مطلع الفقرة الثالثة إن هناك علاقة وثيقة بين مدى الولاء لكيان سياسي جديد ومدى تطابق هذا الكيان مع تطلعات المجتمع. والحقيقة إن انهيار «الجماعة العثمانية» أحدث في داخل الجماعة الفلسطينية ما هو بالبركان أشبه. فقد كان الإطار العثماني الكبير هو الإطار الطبيعي الذي يحقق الحماية الضرورية للبلاد مما يخطط له الصهاينة. وكان طبيعياً ألا تشهد فلسطين بعد انهيار

السلطنة تمايزات في انتمائها وهويتها كالتى شهدها لبنان مثلاً بين مؤيد بقوة لكيان لبناني منفصل في مقابل محبذ بقوة كذلك للوحدة السورية ومؤيد بالتالي لإزالته . فإذ أصبحت سورية الطبيعية هي الإطار «الواسع» الذي يتيح تحقيق التوازن الإستراتيجي المطلوب ويمنحه حظاً من الصدفية الضرورية، كان طبيعياً ألا ينقسم الفلسطينيون على الالتحاق بحكومة دمشق العربية، وأن يؤكدوا على أن بلادهم هي «سورية الجنوبية». حتى القلة القليلة من الأعيان الذين تلتكأوا في الانضمام السريع إلى العهد الفيصلي فلم يحملوا مشروعاً بديلاً، ويتصل تلكؤهم على الأرجح بتحفظات على محتوى الحكومة ذاتها، وليس على فكرتها نفسها. فإلى أن أعداداً من الأعيان الفلسطينيين شاركوا مشاركة فعالة في المؤتمر السوري الأول كما في إدارة العهد الفيصلي بدمشق ٢٤، فقد أكد هؤلاء جميعهم في بياناتهم وتصريحاتهم ومجمل تحركاتهم على رفض انفصال فلسطين عن سوريا. لقد ظلت الوطنية الفلسطينية مندمجة في الحركة العربية الجامعة وطموحها في التوحد في دولة واحدة إلى الحد الذي تبنى فيه الفلسطينيون منذ البداية علم الثورة العربية ونشيدها، واعتبروا أن المؤتمر العربي في دمشق هو المؤتمر الفلسطيني الثاني باعتبار أن الأول اختتم أعماله في القدس في أوائل شباط/ فبراير ١٩١٩.

هكذا، لم يتصور العمل السياسي الفلسطيني في تلك المرحلة المبكرة مستقبلاً سياسياً خاصاً لفلسطين خارج إطار الجامعة العثمانية أولاً ثم الجامعة السورية ثانياً. وخلال العهد الفيصلي قصير العمر، وصعود المقال الاستقلالي العروبي معه، طرحت القضية الفلسطينية في إطار الدعوة إلى ضمان استقلال «سورية الكبرى» وإنجاز وحدتها. لقد شكل الإنتماء السوري العروبي بالنسبة للفلسطينيين إطاراً ممكناً يتسع لهويتهم المخصوصة، من ناحية، وعمقاً استراتيجياً يعزز من موازين القوى التي كانوا يعرفون منذئذ إنها مختلفة لغير صالحهم، من ناحية أخرى.

ولأن العمل السياسي الفلسطيني لم يواجه انقسامات أو تمايزات مذهبية - كيانية و/ أو طائفية - وطنية على غرار المناطق الأخرى، تشكلت بدايات الوطنية الفلسطينية على صورة ائتلاف إسلامي- مسيحي في مواجهة الصهيونية، ونمت في داخل هذا الائتلاف. وظلت التعبيرات السياسية الأولى للوطنية الفلسطينية (المؤتمرات الإسلامية- المسيحية) تؤكد على أنها جزء من الحركة العربية الواحدة. فمنذ المؤتمر الأول، أكد المؤتمرون على أن فلسطين جزء من «سورية العربية، إذ لم يحدث قط أن انفصلت عنها في أي وقت من الأوقات»، أكدوا على ارتباط سكان فلسطين بسكان سوريا ب«روابط قومية ودينية ولغوية وطبيعية واقتصادية وجغرافية». وعبر هؤلاء عن رغبتهم في أن تبقى فلسطين «غير منفصلة عن الحكومة السورية العربية المستقلة المرتبطة بالوحدة العربية، خارجة عن كل نفوذ أو حماية ٢٥». ورد في تقرير فرنسي بتاريخ ١٠/٠٥/١٩٢٢ بعنوان (المعارضة

الشعبية للانتداب البريطاني تضم كافة السكان في فلسطين) أنه «في مواجهة الخطر المشترك، تكتل عرب فلسطين، مسلمين ومسيحيين، في جمعيات وروابط في كل قرية ومنطقة، وعقدوا، رغم كل العراقيل، مؤتمراً في القدس عام ١٩١٩. وفي صيف عام ١٩٢٠، في القدس مجدداً من ٢٧ حزيران/ يونيو حتى ٣ تموز/ يوليو، وحذروا فيها من «مغبة تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود»<sup>٢٦</sup>.

ولم تخف معاني حرص الفلسطينيين القوي على التأكيد على الوحدة السورية لا على البريطانيين ولا على الصهيونيين، وما ترددوا يوماً على العمل ضدها. يصف هيربرت صموئيل، في تقرير قدمه إلى وزارة الخارجية عن مهمة قام بها في البلاد في مطلع العام ١٩٢٠ بوصفه رئيساً للجنة الاستشارية للتنمية الاقتصادية في فلسطين، يصف مشاعر السكان العرب الفلسطينيين: «إن الحركة القائمة في فلسطين من أجل توحيدها مع سورية تنبع من مصادر مختلفة: فهناك شعور وطني طبيعي بين المجموعة العربية الواعية سياسياً لمصلحة قيام دولة مستقلة، بحيث تكون متسعة قدر الإمكان. كذلك فإن هناك شعوراً بأن إدخال أي تقسيمات اقتصادية بين الأقطار المتجاورة، وهي التي كانت من قبل تحت حكومة واحدة، سيسبب كثيراً من المتاعب، وسيكون بمثابة خطوة انتكاسية؛ كما أن هناك الحركة المعادية للصهيونية القائمة على تصور أن الهجرة الكبيرة سوف تؤدي إلى وضع السكان في مستوى أدنى، لذلك فهي تعتبر سورية الموحدة المستقلة الوسيلة الوحيدة لمواجهة الصهيونية»<sup>٢٧</sup>.

٥. غير أن الوقائع تقهر الرغبات. فإذا أثبتت التجزئة الاستعمارية أنها أقوى من كل المشروعات التوحيدية، فقد توجب على الأعيان الفلسطينيين أن يواجهوا وضعاً فريداً يتسم بخطر صهيوني داهم، وبإدارة انتدابية غاشمة في كل مكان وخصوصاً في فلسطين. فلئن كانت بريطانيا وفرنسا احترمتا إلى هذا الحد أو ذاك شروط الانتداب في المناطق التي سيطرتا عليها، فإن بريطانيا مارست في فلسطين حكماً استعماريّاً مباشراً، وتعاملت معها كما لو كانت واحدة من مستعمرات «التاج»، يحكمها المفوض السامي مباشرة بمعاونة لجنة تنفيذية متكونة من عدد قليل من كبار الموظفين الإنجليز. إلى ذلك، لم تكن بريطانيا تريد أن ترى في عرب فلسطين شعباً له حقوق سياسية. وكانت مصممة على السيطرة الكلية على فلسطين وعلى توفير شروط نجاح البرنامج الصهيوني. وهي لذلك كانت ترفض بإصرار عنيد أي مطلب من مطالب الحركة الوطنية الفلسطينية ينال من سيطرتها المطلقة على البلاد؛ وفي الحقيقة صممت على عرقلة تكوين مركز للوطنية الفلسطينية يكون رمزاً لها: تلتف حوله ويمثلها في صياغة مطالبها وفي حدّ هذه المطالب. وقد كان لغياب هذا المركز تأثير كبير على سيرورة الهوية الوطنية الفلسطينية، فقد «أثر إنكار حق الفلسطينيين في دولة كثيراً على

نمو هوية الفلسطينيين ٢٨».

نعلم أن إنتاج المعاني السياسية (أو تأكيدها وقولبتها وإعادة إنتاجها) يقع في داخل الثقافات المحلية وعواملها التي تدخل هي بدورها في تفاعل إن مع الثقافات المحيطة أو مع السائدة عالمياً. ونعلم أن التفاعلات الثقافية لا تحدث في التاريخ كما تحدث الزلازل. فلا تجتاح الثقافة السائدة الثقافات المحلية اجتياح الفيضانات. ولا يعني انتقال الهوية الفلسطينية من «الجماعة العثمانية» إلى «الوحدة العربية» المتمثلة في الدولة الفيصلية في دمشق تغييراً في محتوى الهوية أو تحويلاً لها إلى إطار مغاير. فقد شكل التهويد الخطر الكبير الذي كان يمس هوية الجماعة الفلسطينية كلها. ولم تتعامل النخبة الفلسطينية مع الوقائع، التي كانت تتلاحق بتسارع يفوق توقعاتها ويزلزل عالمها بكليته، إلا من حيث علاقتها بالخطر المصري الكبير. وما كان يمكن للفلسطينيين أن يروا فصل بلادهم عن سورية (أعلن عنه رسمياً في أواخر أيلول/ سبتمبر ١٩١٩) غير أنه مسعى من مساعي محاصرتهم وإضعافهم في مواجهة المشروع الصهيوني. نشرت جريدة «العاصمة» (دمشق ١٩١٩/١٢/١١) بعنوان «احتجاج القدس مذكرة الأندية والجمعيات العربية المقدسية وجهتها إلى مجلس الشيوخ الأمريكي»، جاء فيها: «إن الأمة السورية التي خاضت غمار هذه الحرب مع الحلفاء ترى من الإجحاف العظيم والظلم الفاحش أن يكون نصيبها من غنيمة النصر تقسيمها تقسيماً يؤدي بها إلى الهلاك القريب. كما أن جعل القسم الجنوبي منها، المأهولة جميعها بسكانها العرب منذ ثلاثة عشر قرناً، وطناً قومياً لليهود والسماح لهم بالهجرة إلى البلاد رغم أنوف أهلها الذين أعلنوا (أنهم يرفضون) بالإجماع التام تلك الهجرة التي تؤدي بلا ريب إلى إخراجهم من بلادهم وقتل جامعتهم القومية. وهذا ظلم عجيب، ولا يمكن أن يخضع له العرب من المسلمين والمسيحيين الذين صمموا على الاحتفاظ ببلادهم وحياتهم وقوميتهم إلى الزمن الأخير ٢٩». أما جريدة «فلسطين» فتؤكد، في عددها ١٤ تموز/ يوليو ١٩١٨، على أننا «نطلب سيادة القانون المبني على إرادة المحكومين، والذي يؤيده رأي البشر المنظم»، وتتساءل: «هل من الممكن بت مصير فلسطين قبل أخذ رأيها إذن؟ أيجوز أن فئة قليلة من فلسطين تصبح بعد الاحتلال الانكليزي صاحبة السيادة في البلاد؟ فهذا لانرضاه، ولا نظن أن دولة بريطانيا العظمى وحلفاءها يرضونه مطلقاً ٣٠».

يميل جل الذين كتبوا عن القضية الفلسطينية إلى عزو النكبة إلى عاملين مركزيين اثنين. أولاهما يتصل بـ «البنية الإقطاعية البطركية للمجتمع الفلسطيني» وما يترتب عنها عملياً من ان السلطة تتركز في أيدي قلة من الوجهاء «طائفة (كاست) الأندية حيث تنشغل العائلات الكبيرة بمنازعاتها وبالمدافع عن مصالحها الخاصة أكثر من انشغالها بالإستييطان الصهيوني»؛ والثاني هو تأخر استيعاب النتائج الفعلية التي ستترتب على تصريح بلفور ٣١». ودرج باحثون فلسطينيون على وجه الخصوص

(وكنت من بينهم في كتابي نظرة جديدة إلى تاريخ القضية الفلسطينية المنشور قبل حوالي أربعين سنة) على ترجيح القول إن النخبة الفلسطينية لأسباب تتصل ببنيتها الاجتماعية سرعان ما أدعت لمصالحها الطبقية وطبعت بذلك بنية الحركة الوطنية الفلسطينية ومطالبها وهوية الفلسطينيين بالتالي. ويضيف آخرون لتعليل ذلك التأكيد على قول بعضهم من معاصري تلك الفترة المبكرة إن الإنجليز عملوا على توجيه الحركة الوطنية الفلسطينية وضغطوا باتجاه تحييد انفصالها عن التيار العروبي في المؤتمر السوري العام<sup>٣٣</sup>. ويقول هؤلاء إنهم استقدموا، عشية المؤتمر الفلسطيني الأول (القدس بين ١٩٢٧-١٩٢٩/٢/٩) الجنرال جبرائيل حداد (مدير الأمن العام في حكومة فيصل بدمشق)، من أجل الضغط على أعيان القدس من أعضاء المؤتمر، خصوصاً على رئيس الجمعية الإسلامية المسيحية في القدس عارف باشا الدجاني وآخرين، وحثهم على قبول فكرة "فلسطين للفلسطينيين"، في مواجهة فكرة أن فلسطين هي "سورية الجنوبية"<sup>٣٤</sup>.

غير أن المسألة أشد تعقيداً من أن يُصار إلى حصرها بهذه الخطاطية التبسيطية بين طرفين أحدهما ذميم بالتعريف. فمن غير الممكن اختزال موقف التيار "الفلسطيني" في كونه محض استجابة للضغط البريطاني و/أو أنه يعبر عن المصالح الطبقية للقوم الذي تبنى التيار. ولا يخفى أن المرجع الوحيد الذي استند إليه سخيني وغيره (سميح شبيب مؤخراً كمثال) هو بوراث ٣٤٧. Porath الذي يستند إلى مصادر استخباراتية صهيونية وبريطانية عموماً ويتعذر في الوقت ذاته الركون إلى موضوعيته. ولا تكفي ملاحظة كون أبرز دعاة تيار الانفصال الفلسطيني، كما يقول عصام سخيني، «من أثرياء فلسطين ومن رؤساء العائلات الكبيرة، بينما كان دعاة سوريا الجنوبية من الشبان الموالين لفكرة الوحدة العربية<sup>٣٥</sup>» لتفسير التحول الكبير في الهوية الفلسطينية. ألا يشكل الوعي المبكر بالبرنامج الصهيوني كما رأينا عنصراً قوياً حاثاً على التفكير في تدبر الأمور إزاء خطر ماثل فاحش العنف؟ بل إن الدلالات الرمزية للتآلف المسلم - المسيحي في فلسطين لا يمكن أن تكون أقل وطنية مما لو كان إسمها عربية أو وطنية أو فلسطينية أو غيرها من التسميات. فالقضية تتصل أولاً بتشكل حركة وطنية تستطيع أن تعبر عن تطلعات عرب فلسطين في كفاحهم من أجل انتزاع حقوقهم وإحباط البرنامج الصهيوني الذي كان بريطانياً بحسب معاني تلك الفترة. أكثر من ذلك، يلاحظ إيلان باييه وآخرون أن الفلسطينيين الأكثر انتقاداً للحركة الصهيونية والأشد تحذيراً منه كانوا في غالبهم من الفلسطينيين المسيحيين<sup>٣٦</sup>.

من الممكن القول إنه نما في داخل الوطنية الفلسطينية الوليدة تيار كان أقلياً في البداية (يمثله المقدسيان عارف باشا الدجاني ويعقوب فزّاج والحيفاويان رشيد الحاج إبراهيم واسكندر منسا والغزاويان أحمد الصوراني وسعيد الشوا) يؤكد على وحدة سورية وفلسطين «مع المطالبة بحكومة

فلسطينية مستقلة استقلالاً داخلياً ضمن هذه الوحدة». يتكشف ذلك بوضوح في مذكرة الجمعية الإسلامية المسيحية بالقدس إلى معتمدي الدول بالقدس وإلى الحاكم العسكري البريطاني في ١٩١٩/٣/٢٤ وهي المذكرة التي ورد فيها ما يأتي: «.. نطلب بلسان عموم الأهالي أن يكون لفلسطين حكومة دستورية مستقلة استقلالاً داخلياً، تتأسس على اختيار الأهالي الوطنيين، وتسن لنفسها قوانين خاصة بها، وفقاً لرغائب سكانها، مرتبطة بسياسة سورية العربية المستقلة استقلالاً تاماً، وإنما نطلب منع المهجرة الصهيونية عن فلسطين، وأن لا يمس استقلالنا الداخلي بأية صورة كانت ٣٧». وسيوضح هذا المطلب أيضاً في مذكرة الجمعية إلى لجنة كنج- كراين، وفي غيرها من المواقف ٣٨.

والحقيقة أن الشاب محمد عزة دروزة كان وقتذاك ممثلاً حماساً لحكومة فيصل وللتيار الوحدوي العروبي، ولعب دوراً قوياً، كما يقول، في ترجيح التيار التوحيدي في داخل المؤتمر الفلسطيني الأول، وفي صياغة بيانته ٣٩، الأمر الذي يؤثر على كتابته عموماً وعلى منهجيته في التأريخ على وجه الخصوص، حيث لاحدود «بين الذكريات الشخصية وكتابة البحث التاريخي»، كما تقول بحق بيان نويهض الحوت ٤٠. وما الذي يطلبه هذا التيار الوحدوي غير ربط القضية الفلسطينية بالقضية السورية واعتبار «فلسطين جزءاً من سورية العربية، إذ لم يحدث قط أن انفصلت عنها في أي وقت من الأوقات»، و«ألا تنفصل سورية الجنوبية، أو فلسطين، عن حكومة سورية العربية المستقلة...»؟ غير أن حكومة فيصل ذاتها لم تصمد طويلاً، من ناحية، ولم تستطع تلبية تطلعات الشبان من أمثال دروزة وغيره، من ناحية ثانية.

والواقع أن حكومة دمشق الفيصلية عبّرت، في بدايتها، عن تطلعات الأعيان العرب في كل البلاد السورية، ومنهم أعيان فلسطين الذين شاركوا بكثافة في المؤتمر السوري العام الذي عقد في دمشق في ١٩٢٠/٣/٦ وأعلن الملكية في كل سوريا، وبايع فيصل ابن الحسين ملكاً عليها، وكانوا أكثرية فيه ٤٢. ولو صح ما يرويه بوراث من أن أمين الحسيني قال في الأول من نيسان/ أبريل ١٩٢٠ بعد عودته من دمشق، إن الحكومة البريطانية أيدت حكم فيصل على فلسطين ٤٣، لتوفر لدينا تعليلاً إضافياً لفرط الحماسة الفلسطينية لحكومة فيصل وللمؤتمر السوري العام. بل إن أحد أعيان القدس، وهو سعيد الحسيني، جرى اختياره في ١٩٢٠/٣/٨ وزيراً للخارجية لأول حكومة عربية بدمشق.

لكن الوقائع المتسارعة سرعان ما أطاحت بالأمال أو بكثير منها. فقد أقر مؤتمر سان ريمو في ١٩٢٠/٤/٢٤ الإنتداب الفرنسي على سوريا والبريطاني على فلسطين وأدمج فيه تمرير بلفور. نجم عن ذلك أن أُعيد تشكيل الحكومة الفيصلية في ١٩٢٠/٥/٣ استبعد جرائها وزير الخارجية الفلسطيني سعيد الحسيني. وقد فهم من استبعاد الحسيني، كما كتب يوسف الحكيم الذي كان وزيراً للناقعة في تلك الوزارة «عدم إثارة بريطانية العظمى الناقمة على ذكر فلسطين ضمن الوحدة

السورية في قرار المؤتمر السوري ٤٤». هكذا جافت الوقائع المتسارعة بفضاظة تطلعات الشبان أمثال محمد عزة دروزة وأمين الحسيني وعارف العارف، فضلا عن الأعيان الكهول بالتأكيد. توجب على الأعيان السوريين جميعهم إن في دمشق أو في بيروت والقدس أن يتكيفوا بسرعة مع الوقائع. وكان على الولاءات المعدلة أن تجد طريقها إلى التعبير عن محتواها وخصوصاً في فلسطين المهتدة.

نعرف اليوم أن الهويات ليست كينونات راسخة إلا في اللغة. ونعرف أن الهوية ليست كتلة ناجزة تولد مكتملة أي تحدث دفعة واحدة في التاريخ. فإلى أنها سيرورة دائمة التشكل في الزمان والمكان، هي أيضاً مستويات أو هويات متجاورة أو متعايشة في داخل هوية عليا أو كلية. فأنت زوج وأخ وموظف ونقابي وابن مدينة ومنطقة وعائلة واسعة وتنتمي إلى أمة ومذهب وغير ذلك كثير. جميع هذه الهويات تجتمع فيك وتتعايش فيك وتشكل جميعها هويتك أنت. كل منها يقبع فيك ويطل برأسه حين يُستدعى أو يجد الحاجة والسبيل إلى البروز. وهذه الحاجة قد تكون سيقاً أو استجابة لتحد أو خطر ممكن يتهدد واحدة من هذه الهويات الدنيا التي تتخذ منك وطناً لها. الهوية هي إذن أزمة دائمة لأنها تشكل دائم وصورة متجددة في مرآة الذات.

بعد حوالي قرن من الزمان على تلك الأحداث العاصفة، يتعذر علينا اليوم سبر التراكمات التي أفضت بالفلسطينيين إلى الانتقال من فلسطين سورية الجنوبية إلى فلسطين الفلسطينية، والتعرف على محتوى هذا الانتقال. ومن الملحوظ أن الفلسطينيين كانوا أول العرب الشاميين تأكيداً على ولائهم أو على هويتهم الجديدة التي صارت لهم بعد الاحتلال البريطاني والبرنامج الصهيوني الذي يتضمنه صك الانتداب وتصريح بلفور. ولا يمكن لبحث جاد في الهوية الفلسطينية غير أن يعمل على سبر العوامل التي أفضت إلى تكيف الفلسطينيين السريع مع أوضاعهم المخصوصة، والتعديلات التي أدخلوها على شبكة الولاءات التي ينتمون إليها، أي على هويتهم، وصلة ذلك بالوعي بالمخاطر التي تحيط ببلادهم.

لماذا ألح الفلسطينيون على خصوصية أوضاعهم وعلى الحاجة إلى تشخيصها ومعالجتها من حيث هي أولية على جدول الأعمال؟ لا جواب قاطع على السؤال. إذ كيف تُسبر اللحظة التي شرع فيها الفلسطينيون يتعرفون إلى صورتهم المخصوصة بمعزل عن التاريخ، أي بعيداً عن خصوصية التحدي الذي تمثله أخطار البرنامج الصهيوني ورديفه الإنتداب؟ قد توفر لنا شهادة محمد رشيد رضا عن المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف (٢٥ آب/ أغسطس- ٢١ أيلول/ سبتمبر ١٩٢١) مصدرراً يساعدنا في تحديد العنصر الضروري الذي أفضى إلى أن يُبرز الفلسطينيون خصوصيتهم ويعدّلوا من ولاءاتهم في داخل الحركة العربية. فقد أصر «الوفد العربي الفلسطيني» إلى المؤتمر (المكون من توفيق حماد، رئيس الوفد ورئيس الجمعية الإسلامية المسيحية في نابلس، وأمين التميمي ووهبة العيسى) أن

يُدعى المؤتمر بـ « المؤتمر السوري- الفلسطيني» لأن الوفد خشي أنه «إذا أُطلق إسم سورية الآن، لاندخل فلسطين في مسماه». ويضيف الشيخ رشيد رضا أن الوفد الفلسطيني خير المؤتمرات بين فصل المسألة الفلسطينية عن القضية السورية، أو ربط المسألة الفلسطينية بالوحدة العربية لأن ذلك لا يعرقل مطلب استقلال فلسطين». كان أعضاء الوفد الفلسطيني يعتقدون، كما يقول رضا، «أن ربط مصير فلسطين بباقي سوريا المنتدبة من شأنه أن يعرقل استقلال الأولى ولا يساهم في تحقيق استقلال الثانية٤٥».

بيّن رشيد الخالدي في بحثه المرموق عن الهوية الفلسطينية كيف أدخل الفلسطينيون عدة تعديلات على المستويات العليا في هويتهم ٤٦. فقد انهار البعد العثماني مع انهيار السلطنة العثمانية. واختفى الولاء العثماني بعد أن كان مركزياً في هوية العرب السوريين قبل الحرب الأولى والتغيرات الكبرى التي ترتبت جراءها. يتعلق التعديل الثاني بالانتقال نحو فلسطينية فلسطين (والفلسطينيين) بعد أن استقرت لفترة وجيزة على أنها سورية الجنوبية. أما التعديل الثالث فيتعلق بالهوية الجديدة التي هي فلسطين، وسرى ذلك في بحث لاحق. ويتحدث باروخ كمرلنغ في الهوية الفلسطينية السابقة على الانتداب عن هويتين متعايشتين أو لاهما عثمانية «تنسجم وهوية وإيديولوجيا النخب الحضرية من تجار ونبلاء (.. وهوية تخص) الفلاحين والفئات الشعبية الدنيا ترتبط بالعشيرة، والدين والانتماء إلى قيسي/ ميني؛ ويقوم الإسلام بحسر الهوية بين الفلاحين والأفندية٤٧.

٦. ما تقدم يفسر بالتأكيد لماذا كان لانهاية الحكومة العربية الفيصلية بدمشق في تموز/ يوليو ١٩٢٠ وقع الصاعقة على رأس الفلسطينيين؛ ولماذا شكل لهم صدمة عنيفة وحاداً مربكاً ومذهلاً، ولماذا بدت الناس وكأنها فقدت ظهرها الأساسي، وسندها القوي في مواجهة خطر التهويد؛ ولماذا أن بعض الحركات المسلحة المناهضة للصهيونية، التي كانت بدأت في منطقة سمخ والحدود السورية الفلسطينية٤٨، لم تستطع الاستمرار باعتبار أن «ظروف دمشق السيئة التي انتهت بانتهاء العهد الفيصلي كانت أخذت تشتد وتتلاحق دراكاً٤٩»، بحسب واحد من رجالات العهد الفيصلي هؤلاء، هو محمد عزة دروزة.

ليس القصر الملكي أو الرئاسي سلطة فحسب. إنه كذلك نقطة استقطاب، ومركز تلتقي لديه وحول الموقف منه (مهما كان الموقف) الإرادة الوطنية والهوية الوطنية بالتالي للبلاد الجديدة. إنه مركز الكيانية الجديدة باعتبار أن وجوده، مجرد وجوده، هو الذي يحدد شروط «اللعبة» السياسية كلها. وبغياب هذا المركز، كان على الحركة الوطنية الفلسطينية أن تخلقه لينة لينة في

ظروف عسيرة وغير مواتية بالتأكيد. ولم يكن سهلاً في ظروف الزلزال الكبير الذي واجهته الجماعة الفلسطينية أن تنجب هذه القيادة/ المركز التي ستلتقي عندها إرادات أهالي البلاد ومصالحها وشبكات ولاءاتها، وهي كثيرة ومتعارضة بالتعريف. والواقع أن البريطانيين سوف يعرقلون إنشاء هذا المركز المرجعي، وسوف يمتنعون عن الإعراف به، إن وجد ٥٠، متبعين سياسة «فرق تسد» على أسس طائفية وجغرافية وجهوية وعشيرية وأسرية وغير ذلك. ولا تخفى معاني الرفض البريطاني للكيانية الفلسطينية التي كانت تتبلور مع ذلك بالتدرج. ففي هذه الكيانية يكمن بالضبط أس ما يخشاه البريطانيون والصهاينة في الوطنية الفلسطينية، وهو رفض وعد بلفور والبرنامج الصهيوني. ولا يمكن لوطنية فلسطينية أن تنمو من خارج إطار الهوية الفلسطينية ومطالبها المعارضة لهما ولشريعتهما. ولا يمكن لها أن تنمو وأن تقوم بوظائفها من غير أن تتأسس أي من غير أن تعبر عن نفسها في مؤسسات وبنية تنظيمية ومهمات الخ. وهو ما سيتضح في فترة لاحقة.

\*\*\*\*

من المستحسن التوضيح هنا، تحاشياً لكل لبس ممكن: لا تولد الهويات الجمعية دفعة واحدة؛ إنها سيرورات تاريخية معقدة تلتقي فيها جملة من العناصر التي تتفاعل في الزمان والمكان، إنها توليفة تنضج في التاريخ ويتعذر فهمها من غيره. وبما هي المرأة الرمزية أو المعنوية التي ترى الجماعة عبرها صورتها في التاريخ، فالهويات لا يمكن أن تكون ناقصة أو جزئية قط. فهي إما أن تكون تامة أو لا تكون أبداً. وهي كغيرها من الجماعات العربية التي كانت مازالت إلى حد قريب عثمانية، لم تكن الجماعة الفلسطينية قد تعرفت بعد إلى هويتها الجديدة التي صارت لها، ولم يتسن لها أن تعيد ترتيب قواها وتراتباتها وتعاضداتها وشبكات ولاءاتها بما يتماشى مع الوقائع الجديدة التي تحيط بها. وكان على هذه الجماعة، لكي تتمكن من خلق مركزٍ لهويتها ومحور تلتقي لديه إرادات جماعاتها وشبكات مصالحها وهوياتها الفرعية أو الدنيا، أن تبتكر هذا المحور وأن توجده من «عدم». وكان على هذا المركز كيما يوجد، أن ينشأ من بين هذه الهويات الدنيا، وأن يعلو عليها جميعها، بحيث ترى ذاتها فيه ويتجاوزها هو في الوقت ذاته.

لقد أطلقت على هذه السنوات الأربع أو الخمس الأولى من عمر الاحتلال البريطاني اسم سنوات الجمر، لأنها السنوات التي انهار فيها عالم كامل من المعايير والقيم والمصالح والتراتبات، وبالضرورة الهويات والانتماءات. إنها سنوات القلق الكبير، ففيها اكتشف الفلسطينيون حجم الخطر الذي دهمهم وحدود إمكاناتهم على مواجهته، ومقدار حاجتهم إلى إعادة ترتيب أمورهم وبالضرورة عالمهم الذي إليه ينتسبون. وفي هذه السنوات الحرجة بحسب وصف رشيد الخالدي لها ٥١، شرع الفلسطينيون في بلورة هوية جامعة لهم، وبالتعرف إلى أنفسهم بما

هم فلسطينيون ينتمون إلى وطن تستهدفه تلاعبات المستعمرين وبرامجهم. غير أن اكتشافهم لفلسطينيتهم لم يحدث دفعة واحدة، من ناحية، ولم يخلُ من إعادة توضيب لسلم الهويات، من ناحية ثانية. وقد شكلت الخشية من الخطر الذي يمثله البرنامج الصهيوني العنصر المركزي الذي يقف في أس هذه التحولات. كتب الكابتن كامب من دائرة الاستخبارات البريطانية في تقريره عن المؤتمر الفلسطيني الأول في القدس (كانون ٢/يناير ١٩١٩): إن الخوف من الصهيونية يقف «وراء السبب الرئيسي الذي كان يدفع الشبان، من العناصر الموالية للوحدة العربية من العطف على الإتحاد مع سورية العربية المستقلة. فبانضمام فلسطين إلى سورية العربية يصبح في وسع شعب فلسطين، بمساعدة العرب الآخرين، أن يقاوم الهجرة اليهودية بنجاح ٥٢». في حين أن الخوف من البرنامج الصهيوني دفع الفلسطينيين، بعد أقل من سنتين وإثر انهيار دولة فيصل بدمشق على وجه الخصوص، إلى أن يُدخِلوا تعديلاً على ولائهم، فيحوّلونه من سورية الجنوبية إلى فلسطين العربية. ينقل د. بشير نافع عن بوراث Y. Porath أن موسى كاظم باشا الحسيني، اول رئيس للجنة التنفيذية، أي لقيادة الحركة الوطنية الفلسطينية، قال للمؤتمر العربي الفلسطيني إنه «بعد الأحداث الأخيرة في دمشق، يجب إجراء تعديلات جذرية على الخطط، فلا سورية جنوبية بعد الآن»؛ يجب الدفاع عن فلسطين ٥٣.

ولقد ترتب عن ذلك أن التدامج الفلسطيني تسارع في تلك الأيام التي تبدو بعيدة في معايير اليوم. فقد اجتمعت الأجناد في كيان واحد، وأخذت تتعرف إلى ذاتها في هذا الاجتماع، في حين شرعت الولاءات الجهوية في فلسطين الانتدابية تتمحور حول مدن ساحلية (حيفا ويفا على وجه الخصوص)، فكانت تنمو وتغدو نقاط جذب لكل من يبحث عن مكان تحت الشمس. وإزاء تزايد الوعي بحجم الخطر الذي كان يحيط بالبلاد، شرعت القدس تصير بالتدرج مركز هذا الكيان الوليد كله ورمز هويته. وما كادت سنوات العشرينات تنتهي حتى غدا الفلسطينيون كينونة جمعية تتعرف إلى ذاتها في مطالبها العامة وهويتها الوطنية؛ وتراها في مركز يعكس صورتها بعد أن كانت جماعات وعشائر وأسر وعصبيات محلية وجهوية ومذهبية وغيرها. هكذا، بدأ الفلسطينيون جلّ العقد الأول من عهد الانتداب على صورة فئات لا يجمعها غير خوفها من خطر يتهددها جميعها، واختتموه وقد غدوا شعباً له حركته الوطنية العامة وقيادته المركزية التي تمثل مصالحه الإستراتيجية.

## الهوامش

- ١ غسان سلامة؛ المجتمع والدولة في المشرق العربي. (١٩٨٧) بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية. ص ٤٣.
- ٢ د. عصام سخيني؛ فلسطين الدولة. ط٢. دار الأسوار، عكا. ١٩٨٦. ص ٤٥
- 3 Jon Kimche ; Palestine or Israel. The Untold Story of why we Failed. (1973). London. P. 142
- 4 Martin Gilbert ; Winston S. Churchill (1975). London. W. Heinemann. Vol 4 : 19161922-. P. 484.
- عن: محمد حافظ يعقوب؛ اللاجئون الفلسطينيون والسلام. بيان ضد الأبارتايد. (١٩٩٩). القاهرة/ مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان. ص ٤٠
- 5 Lt. – Col. W.F. Stirling; Palestine: 19201923-. In: Walid Khalidi ; From Heaven to Conquest. Readings in Zionism and the Palestine Problem until 1948. (1971. Beirut). The Institute for Palestine Studies. P.P 229230-
- ٦ نجيب نصّار؛ الدسائس الصهيونية. كالمستجير من الرمضاء بالنّار. الكرمل. حيفا. ١٩١١/٨/٢٢، عن: ماهر الشريف؛ البحث عن كيان. دراسة في الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٠٨-١٩٩٣. (١٩٩٥). نيقوسيا. مركز الأبحاث والدراسات الإشتراكية في العالم العربي. ص ٢١
- 7 Ilan Pappé ; The « Politics of Notables » to the Politics of Nationalism », The Husayni Family, 18401922-. In Ilan Pappé & Mshe Máoz (eds); Middle Eastern Politics and Ideas. A History from Within. (1997, London & N.Y). Taurus Academic Studies. P. 196
- 8 International Journal of Middle East Studies. Vol. 14 (1982). P P 329 المجتمعع. غسان سلامة. 341- والدولة. ص 44
- ٩ P ٩. Ilan Pappé ; The « Politics of Notables » to the Politics of Nationalism “.
- ١٠ كمثل على ذلك، أنظر كتاب توفيق معمر المحامي؛ ظاهر العمر. (١٩٧٩). ط٣ (١٩٩٦). الناصرة. المعهد العالي للفنون وبيت الكاتب.
- والحقيقة إنه لا يضير الهوية الفلسطينية الحالية أو يضعف من شرعيتها أنها “حديثة”، وهي ليست بحاجة إلى فبركة أساطير لكي تسوّغ شرعيتها وعدالة مطالبها وحقوقها. ثم إن كل الوطنيات في البلاد العربية اليوم بل وفي الشرق كله هي كذلك هويات حديثة تتصل بنشوء الدول الحديثة التي يعود جلها إلى الحرب العالمية الأولى. ليست الهويات بالكينونة الراسخة. إنها سيرورات، أي متحركة في التاريخ. والكيانات السياسية والدول هي غالباً إطار وربما قاعدة لها ولمحتواها.
- ١١ سليم تمّاري؛ الرؤية العثمانية لفلسطين: الترسيم العثماني الإثنوغرافي لفلسطين وسورية. مجلة الدراسات الفلسطينية. ٨٤/ خريف ٢٠١٠. (ص٥٣-٧٢). ص ٦٢
- ١٢ الإصطخري؛ مسالك الممالك. (١٩٢٧). ليدن). بريل. ص ٥٥-٥٦
- ١٣ الإصطخري؛ مسالك.. ص ٥٦
- ١٤ المقدسي؛ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. (١٨٧٧ ليدن). بريل . ص. ١٥٤-١٥٥. التقسيم نفسه نجده بعد ٣

- قرون في معجم البلدان لياقوت الحموي وغيره.
- ١٥ بخصوص رسم حدود فلسطين الإنتدابية: د. عصام سخيني؛ فلسطين الدولة. ط ٢. دار الأسوار، عكا. ١٩٨٦. الفصل ٢. ص ص ٣١- ٦٧
- ١٦ وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٩، من أوراق أكرم زعيتر. أعدتها للنشر بيان نويهض الحوت. ط ٢. (بيروت ١٩٨٤). مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ص ١٤
- ١٧ الحاج راغب الخالدي؛ الإصلاح الحقيقي. جريدة فلسطين (يافا) ١٩١٣/٤/٢. عن: ماهر الشريف. البحث عن كيان. ص ٢٠
- ١٨ وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٩، من أوراق أكرم زعيتر. ص ٧-٨
- ١٩ د. فيصل درّاج؛ تجليات الوطنية الفلسطينية. أوراق فلسطينية. العدد ١. شتاء ٢٠١٣. ص ٢٤ وغيرها
- ٢٠ د. عزة طنّوس؛ الفلسطينيون: ماض مجيد ومستقبل باهر. (١٩٨٢). بيروت. مركز الأبحاث. ص ١٠٤
- ٢١ محضر الجلسة الثانية من مفاوضات الوفد الفلسطيني إلى لندن (١٩٢٢/٠٨/١٩٢١) مع وزير المستعمرات. وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٩ من أوراق أكرم زعيتر. (١٩٧٩) بيروت. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ص ١٢٨-١٣٦. عن د. عصام سخيني. فلسطين الدولة. ص ٩١
- ٢٢ د. عبد الوهاب الكيالي. تاريخ فلسطين الحديث. ط ١٠. (بيروت ١٩٩٠). المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ص ١٠٨
- 23 Ann Mosely Lesch ; Arab Poltics in Palestine, 19171939- : the Frustration of a Nationalist Movement. (1979) Ithaca, London & N.Y. Cornell University Press. P . 43.
- ٢٤ تسفي ألبيلغ؛ المفتي الأكبر. ترجمة مصطفى كبتها. (١٩٩١). عكا. دار الأسوار. ص ٣٧
- ٢٥ أنظر نص البيان لدى: بيان نويهض الحوت؛ القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين؛ ١٩١٧-١٩٤٨ (١٩٨١). بيروت. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ص ٩٦-٩٧
- ٢٦ A. Levant. Série E. ١٩٢٨-١٩٢٩. Tome ٢٨. Palestine. D'Épêche N. ٧٨. P.P. ١٥,١٦.
- عن: مسعود ظاهر. الدولة والمجتمع في المشرق العربي ١٨٤٠-١٩٩٠. (١٩٩١). بيروت. دار الآداب. ص ٦٠
- 27 Doreen Ingrams(ed) ; Palestine Papers 19171922- : Seeds of Conflict. 1972. London. John Murray. p. p 8182-
- 28 Rashid Khalidi ; Rashid Khalidi ; Palestinian Identity. (1979). Tr. Fr : L'identité palestinienne. La construction d'une conscience nationale moderne. (2003 Paris). La fabrique P.45
- ٢٩ ماهر الشريف؛ البحث عن كيان. ص ٢٦
- ٣٠ أوراق أكرم زعيتر. ص ٢. كثيرة هي الدلالات على الوعي المبكر بالخطر الذي يمثله البرنامج الصهيوني على البلاد. ومن غير المفيد إقتال النص بها. يكفي على سبيل المثال للاحصر ذكر ما ورد في مذكرة الجمعية الإسلامية المسيحية في يافا بتاريخ ١٩١٨/١١/٢ إلى الجنرال كلايتون حاكم يافا العسكري :«لانرضى أن يكون لهم ملك وحكومية في فلسطين علينا، ولا نقبل ورود مهاجرين يهود إلى بلادنا قصد التوطن بها واستملاكها. فإذا كان اليهود يريدون تملك فلسطين بحجة كثرة عددهم وأموالهم فهم في نيويورك وروسيا أكثر من فلسطين فليتملكوا في تلك الممالك.» (أوراق أكرم

زعيتر. ص ٥)

31 Xavier Baron ; Les Palestiniens, un peuple. (1977. Paris). Le Sycomore. P. 49

٣٢ في مذكراته، يكتب محمد عزة دروزة أن زعماء القدس أرادوا «كما علمنا» أن «يسموا جمعيتهم باسم الجمعية العربية الوطنية فأوعزت لهم السلطات (البريطانية) بأن يسموها الجمعية الإسلامية المسيحية». لكن هذا القول قد لا ينسجم مع مقاله هو نفسه قبل صفحتين إنه علم من حافظ كنعان بأن رجالاً بارزين من مسلميها ونصاراها (القدس) أنشأوا جمعية باسم الجمعية الإسلامية المسيحية بعد أيام قلائل من احتلال القدس الذي تم في ٩ كانون الأول ١٩١٧ وقبل احتلال نابلس بعشرة شهور». محمد عزة دروزة؛ مئة عام فلسطينية. مذكرات وتسجيلات. الجزء ٢. (١٩٨٦. دمشق). الجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار. ص ١٨ و ١٦ على التوالي. وهو لا يتسق بالتأكيد مع ما ورد لدى خليل السكاكيني في يومياته (الكتاب الأول ١٩٠٧-١٩١٢. تحرير أكرم مسلم. رام الله. ٢٠٠٣. مركز خليل السكاكيني ومؤسسة الدراسات المقدسية. ص ٢٩٧-٢٩٨) أنه بحضور زريق نخلة تداول في ١١/٩/١٩٠٨ مع رئيس بلدية القدس حسين أفندي سليم الحسيني في فكرة ستلعب، كما يقول إيلان بابيه، دوراً هاماً في التاريخ السياسي الفلسطيني، هي فكرة تشكيل «جمعية من المسلمين والنصارى»:

Ilan Pappé ; The Rise and Fall of a Palestinian Dynasty. The Husayn 1700201. 1948-London). Saqi Books. P. 139

٣٣ عصام سخيني، فلسطين الدولة. ص ٨١. وبخصوص المؤتمر الفلسطيني الأول: من أوراق أكرم زعيتر. ص ١٤-١٩ وكذلك: محمد عزة دروزة؛ تسجيلات وتسجيلات. ج ٢. ص ٣٨-٣٩

٣٤ London). Y. Porath ; The Emergence of the Palestine National Movement. (١٩٧٤). London). .V. Frank Cass. P

د. سمح شبيب؛ التشكيلات السياسية الفلسطينية وتكويناتها الاقتصادية - الاجتماعية خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين ١٩٢٠-١٩٤٨. شؤون فلسطينية. العدد ٢٥٢. ربيع ٢٠١٣. ص ٥-٣٠. (ص ٦).  
٣٥ عصام سخيني؛ فلسطين الدولة. ص ٨٣

36 Ilan Pappé ; The « Politics of Notables » to the Politics of Nationalism », P. 190

٣٧ من أوراق أكرم زعيتر؛ ص ٢٢

٣٨ من أوراق أكرم زعيتر؛ ص ٢٢ و عصام سخيني، فلسطين الدولة. ص ٨٢-٨٣

٣٩ محمد عزة دروزة؛ مئة عام فلسطينية. مذكرات وتسجيلات. الجزء ٢. ص ٣٨-٣٩

٤٠ بيان نويهض الحوت؛ المؤرخون الفلسطينيون والنكبة؛ مجلة الدراسات الفلسطينية. ع ٨٩ / شتاء ٢٠١٢. (ص ٥١-٧١)؛ ص ٥٢-٥٥

٤١ عصام سخيني؛ فلسطين الدولة. ص ٨٢

٤٢ بيان نويهض الحوت؛ القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨. (١٩٨١. بيروت). مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ص ٨٥٠-٨٥١

43 Y. Porath ; The Emergence of the Palestine National Movement 19181929-. P. 99

٤٤ يوسف الحكيم؛ سورية والعهد الفيصلي . (ط ٢. بيروت. ١٩٨٠) دار النهار للنشر. ص ١٥٩ عن عصام سخيني؛

- فلسطين الدولة. ص ٨٥
- ٤٥ محمد رشيد رضا؛ مجلة المنار. المجلد ٢٣. ١٩٢٢. ص ٤٤١. عن: جان دايه؛ المؤتمر السوري الفلسطيني. الكاتب الفلسطيني. العدد ٦. كانون الأول ١٩٧٨. ص ٧٩-٨٧. (ص ٨٣-٨٤). وعن المؤتمر: أمين سعيد؛ الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن. المجلد الثالث. مدبولي (القاهرة ١٩٩٧. ص ٢٥٩-٢٦٧)
- 46 Rashid Khalidi ; L'identité palestinienne. La construction .. P.P 238241-
- 47 Barukh Kimmerling ; Process of Formation of Palestinian Collective Identities: The Ottoman & Mandatory Periods. Middle Eastern Studies. Vol. 36. N°2. April 2000. P.P. 4881-. P. 71
- وكذلك: باروخ كمرلنغ ويوثيل شموثيل مفدال؛ الفلسطينيون صيرورة شعب. ترجمه إلى العربية وأعدّه للنشر محمد حمزة غنايم. (٢٠٠٢. عمان). الأهلية للنشر.
- ٤٨ محمود عبيدات؛ الشيخ كايد المفلح أول شهيد أردني من أجل حرية واستقلال فلسطين. الأردن الجديد. العدد ١٤. صيف ١٩٨٩. ص ١٧٠
- ٤٩ محمد عزة دروزة؛ القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها. ج١. صيدا. المكتبة العصرية. ط٢. ص ٣٧
- ٥٠ محمد حافظ يعقوب؛ نظرة جديدة إلى تاريخ القضية الفلسطينية ١٩١٧-١٩٤٧. (١٩٧٤). بيروت. دار الطليعة. ص ٨٧
- 51 Rashid Khalidi ; L'identité palestinienne. ch. VII. .P.P. 224266-.
- 52 J.N. Camp. The Palestine Conference. FO. 371105 (ص 4153/) :عن: الكيالي. تاريخ فلسطين الحديث
- 53 Y. Porath ; The Emergence . P. 107
- بشير نافع؛ نشوء الإتجاهات السياسية في فلسطين أواخر العهد العثماني؛ قراءات سياسية. ١٧/ شتاء ١٩٩٥ (ص ٢٧-٥٦). ص ٤١.